قيم التنوير
وتطوير التعليم المصرى

إعداد
أ.د/ مصطفى حسن النشار

أولاً : ما التنوير ؟!

فى مطلع التسعينات من القرن الثامن عشر سئل الفيلسوف الألمانى الكبير إيمانويل كانط عن معنى التنوير فكتب مقاله الشهير الذى يحمل نفس العنوان معرفاً التنوير بقوله إنه الخروج على كل أشكال السلطة والاعتداد بقدرة العقل الإنسانى على إدراك حقائق الأشياء الطبيعية. وبالطبع فقد شاركه هذا الاعتداد بقيم العقل والعلم من عرفوا حينذاك فى عموم أوربا وخاصة فى فرنسا بفلاسفة حركة التنوير من أمثال فولتير و ديدرو وروسو ومونتسكيو .

لقد أمن دعاة حركة التنوير جميعاً بفكرة التقدم وشككوا فى التقاليد القائمة ودعوا إلى التفكير الذاتى والتفاؤل بتأثير التعليم فى الإصلاح الأخلاقى والعلمى .

وبالطبع فقد شارك هؤلاء الفلاسفة فى دعم حركة التجديد العلمى والفلسفى التى حملها فلاسفة أوربا منذ نهايات القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر وخاصة فلسفات فرنسيس بيكون فى انجلترا بدعوته الرائدة إلى الأخذ بالمنهج الاستقرائى فى دراسة الظواهر الطبيعية ورينيه ديكارت فى فرنسا بدعوته الرائدة إلى الأخذ بالمنهج الاستنباطى الرياضى القائم على بداهة العقل والشك فيما عدا ذلك.

ونظراً لظروف غربية خاصة فى ذلك العصر فقد ارتبطت حركة التنوير الغربية بالدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة من ناحية ، وبين الدين وكلاً من العلم والفلسفة من ناحية أخرى . ومن ثم كان استناد هذه الحركة فى أوربا على قيم العقل والعلم والحرية الفكرية . وقد ساهمت هذه الحركة عبر هذه القيم بلا شك فى هذه النقلة النوعية الكبرى التى شهدتها أوربا فى العصر الحديث ؛ حيث انتقلت أوربا من عصور سادها الظلام

الفكرى والجمود العلمى إلى عصر من الازدهار والتقدم العلمى الذى قاد البشرية إلى مرحلة حضارية جديدة لا نزال نحيا فى ظلها حتى اليوم .

ثانياً: قيم عصر التنوير قيم عربية إسلامية :

ولعل سائل يسأل الآن عن هذه القيم الجديدة التى سادت عصر التنوير فى أوربا : من أين جاءت وإلى أى مدى استفاد فيها الأوربيون من الحضارة العربية الإسلامية ؟

ورداً على سؤال السائل نقول أن الحقيقة التى لا شك فيها أن جانباً كبيراً من قيم عصر النهضة وحركة التنوير الأوربية إنما هو بالفعل كان أحد نتائج اتصال العرب بأوربا ووجودهم الحضارى فى قلب أوربا ؛ فإن أقدم الجامعات الأوربية كانت فى الأصل عربية مثل جامعات طليطة وقرطبة واشبيليه . كما أن أقدم الجامعات التى ظهرت فى أوربا المسيحية كانت جامعات دينية أنشئت فى باريس واكسفورد . وكانت المدارس فى سالرنو وبولونيا ومونبليه فى ايطاليا وفرنسا ثغوراً للثقافة العربية.

وينبغى هنا أن نتذكر أن العرب قد ركزوا فى حركة الترجمة من اليونانية واللاتينية والفارسية إلى العربية على نقل العلوم والفلسفة أكثر من تركيزهم على نقل الأدب ؛ فقد أخذوا الكيمياء العربية من مصر فى عصر الإسكندرية فجعلوها علماً لم يختلط بالصوفية إلا فى أواخر تاريخهم . أما الطب والفلك والبصريات والميكانيكا والصيدلة فقد برعوا فيها أيما براعة . كما أخذوا الجبر الهندى الممزوج بالبلاغة فاستعملوه فى الرياضة.

وهنا لابد أن نؤكد أن أصل النهضة العلمية الأوربية كان عربياً ، وليس أدل على ذلك من أن روجر بيكون ابن القرن الثالث عشر فى أوربا والذى درس فى جامعة اكسفورد كان دائماً ما يقول إن من أراد أن يحصل على المعرفة والتحصيل العلمى بحق فعليه أن يتعلم اللغة العربية! لقد كان روجر بيكون فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ النهضة الأوربية يمثل طريقة التفكير العلمى التجريبى التى قادها العلماء العرب بنجاح فى مقابل طريقة التفكير التأملى الفلسفى التى كانت سائدة فى العصر اليونانى .

وإذا كان ذلك فيما يتعلق بالتأثير العربى الواسع على أوربا فى ميدان العلم

التجريبي ، فإن تأثيرهم في ميدان التجديد الفلسفي كان لا يقل عن ذلك في مداه واتساعه ؛ فقد تطور الفكر الغربي في العصور الوسطى نتيجة تأثر قساوسة الكنيسة ومفكريها بالفلاسفة المسلمين لدرجة وجدنا معها حركات فكرية كاملة في أوروبا تنسب إلى الفلاسفة المسلمين مثل حركة الرشدية اللاتينية وحركة السينوية اللاتينية كما لا يفوتنا هنا التنويه بتأثير فيلسوف كالغزالي في ديكارت وربما أيضاً في ديفيد هيوم . وإن كان تأثيره في ديكارت بدعوته إلى الشك وعقلانية تناول المشكلات الفكرية كان في اعتقادي أهم . وقد يثير الحديث عن هذا التأثير ارتياب البعض لكنها الحقيقة التي كشفت عنها العديد من الدراسات المعاصرة في ضوء المقارنة بين منهج الغزالي ومنهج ديكارت في التفكير الفلسفي. فالشائع أننا نتصور أن الغزالي هو ذلك المفكر الديني المنغلق الرافض للفلسفة ومكفر الفلاسفة بينما الحقيقة هي أن الغزالي هو صاحب القول : من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، كما أنه صاحب القول : بأن العقل أُس الشرع. وهو الذي هاجم غلاة الصوفية نتيجة عدم استنادهم على العقل في فهم شطط أقوالهم ، وأكد على أن ما يوافق العقل إنما يأتي دائما موافقاً للشرع ، إن الغزالي كان أول من نجح في تمرير دراسة المنطق في العالم الإسلامي بعد الحملة التي شنها ضده غلاة الفقهاء قائلين : من تمنطق فقد تزندق . إن الغزالي يقدم في القسطاس المستقيم المبادئ المنطقية من داخل القرآن الكريم نفسه ويؤكد أن القرآن الكريم هو الداعي الأول للحجاج المنطقي وللاستدلال بنوعيه البرهاني والاستقرائي.

إن قيم العقل وحرية التفكير وحرية البحث العلمي والدعوة إلى التأمل في جنبات الكون إنما هي على حد تعبير مفكرنا المعاصر عباس محمود العقاد فريضة إسلامية ، وهي في ذات الوقت تلك القيم التي اقتبسها علماء وفلاسفة الغرب منذ فجر عصر النهضة الغربية وبنوا انطلاقا منها حركتهم التنويرية التي اختلفت في صورتها العامة عن ما اقتبسوه من المسلمين نتيجة الظروف التاريخية التي نشأت فيها فكان أحد أبعادها كما أشرنا فيما سبق الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة من ناحية ، وبين الدين والعلم من ناحية أخرى .

ثالثا : بين التنوير الغربى وبين التنوير الشرقى (العربى الإسلامى) :

وهنا يجدر الإشارة إلى نقطة فى غاية الأهمية عن الفرق بين قيم التنوير الغربية ، وبين قيم التنوير ذاتها إذا ما أردنا أن تكون أساساً نبنى عليه نهضتنا المنشودة فى كافة المجالات ألا وهى : الأخذ فى الاعتبار خصوصية المجتمع الشرقى عموما والعربى الإسلامى على وجه الخصوص . فنحن فى مجتمعاتنا نكاد نتنفس من خلال الإيمان الدينى ولذلك يصعب بشكل مطلق أن ندعو لقيم التنوير الغربية دون تعديلها بحيث تتسق من ناحية مع ثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة من ناحية ، ومع قيمنا الدينية المعاصرة التى لم تتغير كثيرا عما كان عليه الحال فى الماضى العظيم للحضارة الإسلامية فى عصرها الزاهى ، فالدين هو الدين والإسلام هو الإسلام بدعوته إلى الأخذ بكل أسباب العلم والتقدم مع الحرص على العقيدة الدينية الراسخة والإيمان بالإله الواحد فى ذات الوقت من ناحية أخرى .

إن ثقافتنا العربية الإسلامية فى ماضيها ، كما فى حاضرها إن استندت على النص الدينى سواء فى القرآن أو فى السنة النبوية المطهرة هى ثقافة داعية إلى كل قيم التقدم الحضارى وعلى رأسها - فى إطار ما يمكن أن نطلق عليه التنوير الشرقى - الإيمان الدينى بالله الواحد الأحد بالإضافة إلى إعمال العقل الإنسانى فى كل جنبات الوجود لبحث الظواهر الطبيعية وتأمل حقائق الوجود فضلا عن الإيمان الذى لا يتزعزع بحرية البحث العلمى القائم على التجربة وكذلك كل قيم الإصلاح الأخلاقى والتعليمى .

رابعا : أسس إصلاح نظامنا التعليمى وفق قيم التنوير :

إن إصلاح النظام التعليمى يشكل فى اعتقادى شرطاً مسبقاً لأى نهضة أو تقدم منشود ؛ فدور التعليم والأسرة المتعلمة ضرورى لتوفير بيئة مناسبة للتقدم . إذ لا يمكن أن نتحدث عن أى صورة من صور التقدم لمجتمع يعيش على الفطرة الحيوانية الأولى .

وفى تصورى كما فى تصور أى مهتم جاد بقضايا التعليم أن النظام التعليمى الجيد قادر بتطوير مضمونة ونظمه وأدواته والغايات المطلوبة منه أن يدفع بالقيم الصاعدة ويبنيها ويدعمها ، وأن يزلزل القيم الهابطة ويزيل أنقاضها على حد تعبير د . حامد عمار.

إن التعليم يشكل ركيزة أساسية لإزالة القيم الثقافية السلبية ، قيم التخلف ، ويضع مكانها القيم الإيجابية الخلاقة المبدعة قيم التقدم .

ولكن السؤال من أين يبدأ الإصلاح التعليمى الشامل الذى يقوم بهذه المهمة القومية ويحقق أهداف التنمية والتقدم ؟!

(أ) القضاء على الأمية :

بداية لا يمكن أن نتصور نظاماً تعليمياً يستهدف التقدم بدون التركيز المبدئى على نسف الأمية التعليمية نسفاً وجعل نسبتها فى المجتمع تقترب من الصفر !.

إن القراءة والكتابة مهارتان ضروريتان لابد أن يكتسبهما كل فرد فى أى مجتمع يريد أن ينهض ويتقدم . ولذلك فلابد من أن يبدأ الإصلاح التعليمى بالتركيز على محو الأمية بين أبناء الأمة جميعاً صغاراً وكباراً . وليس من ضرورى أن يحصل كل الأبناء على الشهادات الدراسية المختلفة . وإنما المهم هو أن يمتلكوا المهارات التى تمكنهم من تلقى المعرفة العلمية بصورها المختلفة من مصادرها الأصلية من المجلات والكتب عبر القدرة على القراءة والكتابة . إن هذا يعد شرطاً ضرورياً وبدونه لا أمل فى أن يتكون لدينا ما يطلق عليه العلماء المجتمع العلمى ، المجتمع الذى يتقبل أعضاءه المعرفة العلمية ويتفاعلوا معها ويقدرون أصحابها ومبدعيها .

(ب) جهود التطوير السابقة (رصد ونقد) :

بالطبع فإنى لا أنكر أن جهوداً كثيرة قد بذلت وتقارير عديدة قد أعدت عبر سنوات وسنوات مضت لتطوير التعليم فى البلاد العربية ، ويكفى أن أضرب مثلاً واحد على هذا الكم الهائل من الدراسات والتقارير بما حدث فى مصر منذ عام ١٩٧٤م وحتى مطلع التسعينيات فى مصر وحدها ، فقد أنشئ فى ذلك العام المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا ودرس تحسين العملية التعليمية وتطورها خلال تسع عشرة دورة ، أصدر المجلس فيها ١٩ تقريراً شملت نحو ١٨٠ بحثاً عن تطوير المنظومة التعليمية بالإضافة إلى سبعين بحثاً آخرين شملتها جميعاً موسوعة المجالس القومية المتخصصةولا تزال التقارير تعد والتوصيات ترفع إلى الجهات المسئولة . والجهات المسئولة فى وزارة

التربية والتعليم ووزارة التعليم العالى والبحث العلمى فى مصر تقرأ وتحاول تنفيذ ما تراه مناسباً وممكناً من كل هذه الدراسات والتقارير والتوصيات . أقول أننى لا أنكر كل هذه الجهود التى من المؤكد أنها قائمة وموجودة باستمرار فى كل قطر عربى وعلى نفس النحو تقريباً . لكن كل هذه التقارير والجهود التنفيذية تبقى حبراً على ورق وتبقى بدون فاعلية لسبب بسيط هو أنها تعد لتصلح فيما هو قائم فعلاً . والحقيقة التى لابد من مواجهتها هى أن النظم التعليمية القائمة نظم بالية لا تصلح ؛ فالأبنية المدرسية قد أعدت لفصول يجرى فيها تلقين التلاميذ الدرس نظرياً . وهذا كل ما فى الأمر. المبنى المدرسى مصمم للتلقين ، والمدرس أو الأستاذ الجامعى قد أعد بطريقة التلقين ولم يتدرب أو يتعود على الابتكار والإبداع فى طرق التعليم والتدريس ، والكتاب المدرسى أو الجامعى قد أعد بنفس الطريقة فهو يكرر ويعيد نفس ما تعلمه صاحبه أو مؤلفة دون إضافة ودون ابتكار أو إبداع ، فهو مجرد اجترار لمعلومات سابقة منقولة معادة ومكررة .

إذن كيف يمكن أن نتصور حدوث أى تطوير أو تقدم فى النظم التعليمية فى ظل هذه المنظومة البالية التى تدور كلها فى فلك التقليد والتكرار وتعتبر أن الإبداع أو الابتكار هو خروج على النص ينبغى حذفه ومحاربة المتسبب منه !!

(جـ) أسس التطوير المنشود:

إن التطوير الذى أتحدث عنه وأراه ضرورياً لتوفير البيئة المناسبة للانطلاق والتقدم فى المجتمعات المتخلفة ينبغى أن يقوم على عدة أسس أهمها ما يلى:

(١) إعداد الأبنية التعليمية المتطورة القادرة على استيعاب كل من يرغب فى التعليم فى المراحل المختلفة وبالصور التعليمية المختلفة ؛ التعليم العام - التعليم الصناعى - التعليم المهنى بكافة صورة ، التعليم الدينى ... الخ... بحيث تتوحد البنية الأساسية لما ينبغى أن يتعلمه التلميذ فى هذه المراحل والصور المختلفة . إذ ينبغى أن تكون هذه البنية التعليمية الأساسية قائمة على أساس إكساب الطالب القدرة على التفكير المستقل والمبدع ، بعد أن تكسبه أدوات هذا التفكير المستقل والإبداع من منهج علمى مبسط فى التفكير ، وتدريبه على كيفية حل المشكلات التى تواجهه بأبسط

الوسائل وأسهلها . فضلاً عن إكسابه مهارات تكنولوجية ضرورية كالتدريب على استخدام الحاسب الآلى والاستفادة من أحدث منتجات العصر التكنولوجية فى وسائل التعليم كالتعامل مع شبكة الإنترنت والمعلومات للحصول على أى معلومات يريدها فى أى فرع من فروع المعرفة العلمية دون اللجوء إلى المعلم والتعود على الحرية الكاملة فى الاستفادة من هذه المعلومات فيما يدرسه من مواد تعليمية ومقررات دراسية .

(٢) التركيز فى التعليم بمختلف مراحله وصوره إذن على مهارات التفكير المستقل المبدع من خلال إكساب التلميذ فى المدرسة أو الطالب فى الجامعة الوسائل والأدوات اللازمة لذلك مثل تعويده على استخدام الأدوات التكنولوجية الحديثة المتطورة وتعويده على ملاحقة التطور فيها كما سبق وأشرنا .

وذلك لن يتأتى إلا بتطوير المعلم ذاته وإكسابه هذه المهارات التى نطلب منه أن يكسبها لتلاميذه . وأن يتم التقويم الدورى لهؤلاء المعلمين بحيث يستبعد بطريقة دورية غير القادرين على متابعة تطوير أنفسهم وتطوير طرق التدريس التى يستخدمونها وأن يستبدلوا بغيرهم ممن يكونون أكثر قدرة على ذلك ، وأكثر إلماماً بأحدث التطورات التكنولوجية فى مجال التعليم المستقل .

(٣) توفير الإمكانيات المادية اللازمة لذلك التطوير ليس فقط فى الأبنية وفى التطوير وإعداد المدرس أو فى توفير المعدات والأدوات التكنولوجية المستخدمة فى العملية التعليمية ، وإنما أيضا توفير الإمكانيات المادية القادرة على إتاحة الفرصة أمام التلميذ أو الطالب فى التعلم المستقل وأقصد بها توفير المكتبات المقروءة والمسموعة والمرئية بكثافة فى المدارس ودور العلم المختلفة وفى الأحياء والقرى والمدن بشكل يوفر البيئة المناسبة للطالب أن يقرأ أو أن يتعلم أينما اتجه وأينما حل . فالمدرسة ليست وحدها القادرة على كل شئ . بل المكتبات وتوافرها فى كل مكان ضرورة .

وكذلك توفير الإمكانيات المادية التى تتيح للمدرس وللطالب أن يخرجا على المألوف فى إكتساب المعلومات دون الاعتماد فقط على التلقين ، وبمعنى أخر من

الضرورى أن لا يقتصر الأمر على تلقين المعلومات للطالب داخل الفصل ، وإنما ينبغى أن يتدرب على اكتشاف ومعرفة المعلومات بنفسه عن طريق الرحلات العلمية المختلفة من زيارات إلى حدائق الحيوان ، وإلى متاحف العلوم ، وكذلك زيارة الآثار التاريخية ... الخ ...

إن هذه الوسائل غير التقليدية ضرورية ليس فقط لتنمية قدرة التعلم المستقل عند الطالب وإنما أيضاً ليرتبط الطالب ببيئته ويتعود الانتماء إليها والتعرف على مشكلاتها بشكل مباشر وعلى التفكير فى حلها بشكل مستقل ومبدع .

(د) إذا كان ذلك الذى قدمناه يتعلق بتطوير المعلم وطرق التعليم وأدواته وتوفير الإمكانيات اللازمة لكل ذلك فإن ما يتبقى هو تطوير مضمون أو محتوى المقررات الدراسية التى يدرسها الدارسون فى المراحل التعليمية المختلفة . والحقيقة أن هذه فى اعتقادى هى أصعب نقطة لا لأن التحدى الذى يواجهه من يقومون بالتطوير أكبر أو أشد ، بل لأن ذلك قد يصطدم فى أحيان كثيرة بالتوجهات السياسية للأنظمة السياسية فى البلاد المختلفة لأن الشائع والمعروف أن كل دولة تتعمد تربية وتعليم أبنائها من خلال مضامين دراسية تتوافق مع تلك الأنظمة السياسية بصورها المختلفة . فكما أن المجتمعات الرأسمالية تربى أبناءها على قيم تربوية معينة تحترم النظام الديمقراطى فى السياسة ، والحريات الاقتصادية فى الاقتصاد ، كذلك تتعمد المجتمعات الشيوعية أو الاشتراكية تربية أبناءها على احترام نظامها السياسى الشمولى ، وعلى احترام نظام الاقتصاد الموجه والشمولى أيضاً . وهكذا . وفى الحقيقة أن هذا الإطار العام للربط بين النظام السياسى القائم فى بلدها وبين النظام التعليمى فيه لا أحد يملك رفضه كلية لأن فيه بعض الإيجابيات المطلوبة، إذ أن جزءاً من الانتماء للوطن يقوم على احترام نظامه السياسى كما يقوم على احترام منظومة المعتقدات والقيم السائدة فيه .

لكن ما حدث من تطور فى وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة أصبح حائلاً يحول دون أن تنغلق أمة ما على نفسها ، أو يتربى شعب ما على مبادئ معينة قد تكون غير صالحة أو لا تتلاءم مع القيم العالمية السائدة وخاصة فى مجالات السياسة والعلم

والاقتصاد . فإن لم نبادر نحن بفتح النوافذ والاستفادة من كل آليات ووسائل التقدم الحديثة وتدريب الأبناء عليها دون خوف ، فإنها ستفتح أمامهم رغم أنفنا وعبر تلك الوسائل نفسها وتنعدم أمامنا فى هذه الحالة فرصة توجيههم التوجيه الأمثل للاستفادة من تلك الوسائل والمعلومات الحديثة بما يتلاءم مع قيمنا ومعتقداتنا وبما لا يخل بالتوازن العقلى والنفسى لهؤلاء الأبناء تجاه العصر الذى يعيشون فيه .

ولذلك ينبغى أن تخلو مضامين المقررات الدراسية على هؤلاء الطلاب فى مختلف المراحل التعليمية من أى معوقات تعوقهم عن الاستفادة من هذه التكنولوجيات الحديثة فى التعلم واكتساب المهارات والمعلومات . بل ينبغى على العكس من ذلك أن تشتمل هذه المقررات على الحض على الاستفادة من كل ذلك وإن كان علينا فقط أن ندربهم على ترشيد هذه الاستفادة بما يتوافق مع معتقداتنا الدينية وقيمنا الأخلاقية والاجتماعية الأصيلة .

كما ينبغى أن تتضمن هذه المقررات الدراسية خاصة فيما يتعلق بالتاريخ ، والاجتماع ، والمنطق والفلسفة وتاريخ العلوم المختلفة ، حوارات تكشف عن الرأى والرأى الآخر ، وتوضح للدارس ما يقال عنا من دعاوى فارغة وكيفية التعامل مع هذه الآراء والدعاوى وكيفية الحوار مع أصحابها . إن تقديم الحقائق كمسلمات ثابتة لا تقبل النقاش أو الجدال حسب وجهة نظرنا لم يعد الأسلوب الأمثل أو المقبول فى ظل المتغيرات المعاصرة ، لأن ما أتجنب إثارته أمام الدارس يمكنه أن يعرفه من مصادر أخرى وحينئذ سيكتشف القصور والنقص فى ما علمته إياه ولن يكون قادراً حينئذ فى أغلب الظن على الحوار مع هذه الآراء المخالفة !

(هـ) إن تطوير النظم التعليمية العربية فى الأسلوب والأداء والمضامين والأهداف بما يتيح حرية التفكير والتحصيل والقدرة على التعامل مع تعدد الآراء والتعامل معها والإبداع فى ظلها . كل ذلك ينبغى أن يواكبه تطوير نظم التقييم والامتحانات . فلم يعد مقبولا أو مستساغا أن تتطور طرق التدريس والمحتوى الدراسى دون أن تتطور نظم التقييم والامتحانات ، فكما أتحنا الحرية فى التفكير والتعلم والحوار للدارس والمدرس فإنه

من الضروري أن تتاح أمام المعلم حرية أكبر في تقييم أداء التلميذ ، وفي اكتشاف نواحي تفوقه ونبوغه وأن تتاح أمام المدارس والجامعات حرية أكبر في فض مغاليق كل المعوقات التي تقف أمام الحد من حرية انتقال التلميذ أو الطالب إلى الفرقة الدراسية الأعلى التي تتناسب مع ما استطاع تحصيله أو الانتقال من نوع من التعليم إلى نوع آخر حسب تطور . وأن يتم ذلك في إطار من الموضوعية العلمية والجدية لا في إطار من الفساد والرشوة والمحسوبية كما هو حادث اكتشافه لمهاراته الآن بصورة أو بأخرى في ظل كل تلك القيود البيروقراطية الظاهرية القائمة !

إن جرأة التطوير مطلوبة في تطوير النظم التعليمية طالما نجحنا في تحديد الأهداف المطلوب تحقيقها ، وجرأة التطوير ينبغي أن تبدأ بعد أن تتوافر الشروط الأساسية المطلوبة لذلك من مبنى مدرسي معد حسب هذه الأهداف ، ومن مدرس أو معلم جامعي قادر على تحقيق هذه الأهداف ، ومن مقررات دراسية مرنة ومتطورة وقابلة للتعديل والتطوير المستمر ، ومن نظم للامتحان والتقييم لا تقف عائقاً أمام نبوغ النابغين وتقتل فيهم ملكة الإبداع ، بل تشجعهم على المزيد منه وتكتشف مبكراً هؤلاء النابغين ومجالات نبوغهم، وتعرف كيف توظفه وتستفيد منه .

خامساً: التعليم هو القاطرة التي تقود التقدم:

إن من شأن تلك الأسس التي سبق الحديث عنها في الفقرة السابقة أن تنقلنا من ثقافة تعليمية تتبنى بعض قيم التخلف من تلقين وتكرار واعتماد على الذاكرة في التحصيل العلمي ، إلى ثقافة تعليمية تتبنى قيم التنوير والتقدم القائمة على احترام حرية العقل في التفكير وإطلاق حرية البحث العلمي والحصول على المعلومات اللازمة باستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة وليس فقط من خلال ما يقوله المدرس أو الكتاب المدرسي .

وبالطبع فإن تطوير نظامنا التعليمي بهذا الشكل ينبغي أن يتواكب معه خطة لدعم البحث العلمي ونشر الثقافة العلمية على أوسع نطاق وكذلك ينبغي أن نعمل في نفس الوقت على إعادة بناء الثقافة العربية المعاصرة ككل لتكون بشكل عام ثقافة تقدم يؤمن أبناءها بأهمية وضرورة الانفتاح على الثقافات الأخرى في ذات الوقت الذي يعتزون فيه

- بدون الوقوع فى براثن عبادة الماضى - بثقافتهم الإسلامية العربية وإحياء كل عناصرها الإيجابية .

إن بناء نظام تعليمى وجديد حسب تلك الأسس السابق الإشارة إليها يمثل بلا شك القاطرة التى ستقود التقدم المنشود . لكن لا ينبغى أن ننسى أن ثمة جدلاً بين ما يحدثه التعليم من تغيير فى المجتمع وبين قابلية المجتمع نفسه لقبول عناصر هذا النظام والتفاعل معه . فالمجتمع إن لم يكن مهيئاً ككل لقبول قيم التنوير والتقدم فلن يجدى معه أى تطوير أو أى تحديث فى أى مجال من المجالات . ومن هنا يأتى دور التكامل والتناغم بين كل أجهزة ووسائل الإعلام فى استجلاء صورة المستقبل المنشود وتهيئة جميع أفراد المجتمع لاحترام العلم والثقافة العلمية وكذا احترام حرية التفكير وقبول الرأى الآخر ، ولفت الانتباه إلى حتمية وضرورة الانتقال من ثقافة التخلف بكل عناصرها السلبية إلى ثقافة التقدم بكل ما فيها من قيم إيجابية وفعالة تقودنا إلى المشاركة الحضارية الفاعلة فى عالم اليوم .

الهوامش

(١) انظر: كريستوفر وانت واندزجى كليموفسكى : كانط ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة (٤٣٠) ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ١٥٥ .

وراجع الترجمة العربية لمقالة كانط ما التنوير للدكتور عبد الغفار مكاوى نشر ضمن الكتاب التذكارى زكى نجيب محمود فيلسوف وأديباً ومعلماً الذى أصدرته جامعة الكويت تكريماً للدكتور زكى نجيب محمود ونشرته دار الوطن بالكويت عام ١٩٨٧م .

(٢) انظر ما كتبناه من فصول عن فولتير وروسو من فلاسفة التنوير فى كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٩٨م .

(٣) انظر ما كتبناه عن فرنسيس بيكون وديكارت فى كتابنا السابق الإشارة إليه .

(٤) انظر سلامه موسى : ما هى النهضة ؟ ، طبعة مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ٦٠ .

(٥) انظر: نفس المرجع السابق .

(٦) انظر كتابنا : ضد العولمة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م ، ص ٩٥.

(٧) انظر على سبيل المثال : دراسة د / محمود حمدى زقزوق عن المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ، المنشور فى كتابه بنفس العنوان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨١م .

وانظر أيضاً ما كتبناه فى فلاسفة أيقظوا العالم ،سبق الإشارة إليه عن الغزالى وأسلمة نظرية المعرفة .

وانظر كذلك ما كتبناه فى ضد العولمة عن المنهج بين الغزالى وفلاسفة الغرب المحدثين، ص ٩٤– ١١٢ من نفس الطبعة السابق الإشارة إليها .

(٨) انظر كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم ، نفس الفصل السابق الإشارة إليه ، ص ١٨٠ .

(٩) د. حامد عمار: فى بناء البشر– دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليان ١٩٦٤ م ص ٣٨ .

(١٠) د. سليمان حزين : مستقبل الثقافة فى مصر العربية ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٤ م ، ص ١٣٥– ١٩٤.

(١١) هذه الأسس سبق بلورتها ونشرها ضمن كتابنا : فى فلسفة الثقافة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٩م ، ص ١٤١ .

(١٢) انظر ما أشرنا إليه فى هذا الصدد فى كتابنا ، فى فلسفة الثقافة ، سبق الإشارة إليه ، ص ١٤١– ١٤٨ .

تم بحمد الله تعالى ...